بريد الجمعة

ثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجمعة ■ ٢١ يونيو ٢٠٠٢ ■

يكتبه: عبدالوهاب مطاوع

الحلم الضائع

أنا سيدة شابة في الثانية والثلاثين من عمري نشأت بين أب فاضل كريم وأم طيبة وإن كانت عصبية بعض الشيء، وثلاثة أخوة.. ونحن أسرة متوسطة ميسورة الحال من الناحية المادية، ولقد تفتح جمالي مبكراً ولفت الأنظار إليّ ومنذ بلغت سن الثالثة عشرة صارحتني أمي بأن ابن إحدى صديقاتها وهو جار لنا قد جاء يطلب يدي. وفرحت كطفلة بالنبأ وسعدت بأنني سوف أرتدي فستان السهرة وديلة الخطبة.. لكن أبي ثار ورفض هذه الخطبة لأنني مازلت طفلة ولم تيأس أمي التي تؤمن بنظرية زواج الابنة وهي صغيرة واستعانت عليه بالجيران والأقارب إلى أن وافق على مضض وتمت الخطبة. ولك أن تتخيل حال طفلة عمرها ثلاث عشرة سنة وهي مخطوبة لشاب عمره ٢٥ عاماً ولا تعرف ماذا تفعل لتثبت لنفسها وله أنها قد أصبحت أنثى.. لقد لطخت وجهي بالمساحيق وتعلمت الكلام بدلال.. وتصنعت المشي كالبنات وكل ذلك وأنا مازلت تلميذة في الاعدادية، وكانت النتيجة أنني نجحت بمجموع ضعيف ولم أجد سوى مدرسة متوسطة لمواصلة تعليمي بها.. والتحقت بالمدرسة وحدثت بعض المشاكل التي انتهت بفسخ الخطبة بعد ثلاث سنوات وأنا في السادسة عشرة، وما أن انتهت الخطبة حتى احضرت أمي لي على الفور عريسا ثانيا رفضه أبي ثم أحضرت لي عريسا ثالثا وأصر أبي على ألا أرتبط بأحد إلا بعد حصولي على شهادتي المتوسطة.. وتعرفت على اسرة ورشحت لي ابنهم الذي يبلغ من العمر ٢٦ عاما وأصرت عليه.. في حين رفض أبي ورشح لي ابن عمي الطالب بكلية العلوم وأصر عليه وبالفعل خطبت له فلم تطل الخطبة أكثر من ثلاثة أشهر ثم فسخت وهنا سارعت أمي بإحضار العريس الذي تعرفت بأسرته أخيرا، واستمسكت به وتم الزواج في أقل من شهرين وأقمنا في شقة بجوار أسرته.. ولم يمض شهران حتى كان قد طردني من البيت بملابس النوم ورجعت إلى أسرتي وثمرة الزواج القصير تنمو في أحشائي. وكان كل ما سمعته من أمي بعد عودتي باكية هو ألا اهتم بما حدث وأنني سوف أتزوج من هو «سيده» وجاءت ابنتي للحياة وأنا في التاسعة عشرة وتركت طفلتي مع أمي وخرجت إلى العمل وفي داخلي ثورة وتمرد على كل شيء. والتحقت بإحدى شركات المقاولات وتعرفت فيها بمهندس عمره ٢٧ عاما فأحببتي وتقدم لخطبتي بعد كفاح مع أهله الذين قبلوا بي على مضض لأني مطلقة وعندي طفلة ولا عجب في ذلك فالعروس تكون في قمة عزة نفسها وكبريائها وهي على عذريتها وبالرغم من حب زوجي لي إلا أنه لم ينس أبداً أنني مطلقة، وطلب مني بعد الارتباط ألا أخبر أحدا من أقاربه أو زملائه أو جيرانه بأنني كنت متزوجة قبله.

وقبل أن نتزوج بأيام أكد لي زوجي أن ابنتي ستكون موضع رعايته واهتمامه، لكنه طلب مني أن أتركها لدى أمي خلال الشهر الأول من الزواج حتى يسعد بي في البداية ثم نضمها إلينا وفعلت ذلك وبعد انتهاء الشهر طلبت منه أن يسمح لي بإحضارها لتحيا معي فرفض ذلك بإصرار ولم يقبل اي نقاش حول ذلك وساندته أهله في موقفه. ووصل به الحال الى أن خيرني بين أن أقيم معه بدون ابنتي وبين أن اذهب أنا للإقامة معها عند أمي. وخشيت من أن أواجه الفشل للمرة الثانية في حياتي فسكت على مضض.. واستمهلت أمي التي تضيق برعاية طفلتي بعض الوقت إلى أن أنجح في إقناع زوجي، وتحملت دموع الطفلة.. وصراخها كلما غادرتها عائدة إلى بيت زوجي.. وكلما حاولت الحديث معه في هذا الأمر تشدد في الرفض إلى أن عرض على ذات يوم أن أجعل اقامتي الأساسية في بيت أبي مع ابنتي وأن أقضي معه يومي الخميس والجمعة فقط كل أسبوع.. وقبلت بذلك مضطرة.. ومضت الأيام عاماً بعد عام وأنا أعيش أياما هنا وأياما هناك.. أو أعيش مع زوجي وأذهب كل يوم إلي ابنتي إلى أن حملت وأنجبت طفلا وثقلت على الرحلات المستمرة.. ثم أنجبت طفلاً آخر فقررت التوقف عن هذه الرحلة الدائمة ورجوته من جديد أن يسمح لي بضم ابنتي إلى فرفض بعناد لا يرحم. فإذا سألتني وأين والدها من كل ذلك. أجبتك بأنه قد تزوج بعدي مرتين وأنجب في كل زيجة وطرده والده من بيته فأقام مع أهل زوجته في مكان ضيق لايتسع لقدم جديدة.

والمشكلة الآن يا سيدي هي أن ابنتي هذه عمرها الآن ١٣ عاما وتعيش مع أبي وأمي وقد أصبحت في مرحلة خطرة.. وأمي تشكو منها ومن تصرفاتها وتتعامل معها بعصبية شديدة وتسبها بأقذع الشتائم وتقول لي حين اعترض على ذلك إنه إذا لم تعجبني طريقتها معها فلأخذها للإقامة معي، والبنت نتيجة لغياب دور الأب والأم في حياتها تحب ابن الجيران وترسل له خطابات تكتب فيها كلاما كثيرا يدور كله حول «الحلم الضائع» الذي حرمت منه في أن يكون لها بيت وأم وأب وأخوة كبقية البشر وتطالبه بألا يتخلى عنها كما تخلت الدنيا كلها عنها!

وحين عرفت بذلك تحدثت إليها برفق وقلت لها إنها صغيرة على هذا ولابد لها من أن تركز اهتمامها على دراستها وتؤجل «الحب» إلى مرحلة أخرى من العمر حين تكبر وتنضج وكما شكت لي أمي من أنها أخذت مبلغ اربعمائة جنيه من درج أبي وأنفقتها خلال أسبوعين على الشيكولاتة ودعوة صديقاتها في المطاعم لكي تشعر بأنها مميزة عنهم وشعرت باختناق وسددت لأمي بعض هذا المبلغ.. وحرت ماذا أفعل وأنا وحيدة في هذا الأمر مع أني متزوجة! إن زوجي فيما عدا موقفه من ابنتي زوج طيب ويحبني وكريم معي ومع الاولاد ولا يبخل علينا بشيء.. لكن المشكلة الوحيدة في رفضه لإبنتي وعدم حبه لها وإصراره على ألا تقيم معنا لكي أرعاها واحميها من مخاطر المرحلة التي تعيشها.. وأنا أريد أن أنقذها وأعبر بها إلى بر الأمان.. فماذا أفعل يا سيدي؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

الزوج المحب حقا هو الذي لا يضيق بمن تنتسب إلى شريكة حياته برباط أبدي ولا ينكص عن إعانة زوجته على حماية ابنتها من مخاطر الطريق، ولو تحمل هو في سبيل ذلك بعض العناء. ليس فقط عملا بمبدأ أن من أحب الشجرة أحب كل أغصانها! وإنما أيضاً لأن جفاف فرع من فروعها بسبب التكوص عن رعايته في الوقت المناسب إنما يضعف الشجرة كلها ويفقدها بعض بهائها ورونقها وحيويتها وابنتك هذه إحدى أغصان شجرتك التي لا انفصام لها عنك مهما كان من أمرها كما ان ابنك من زوجك الحالي هما فرعان غاليان من فروع نفس الشجرة ورعاية ابنتك وأعانتها على أمرها وحمايتها من مخاطر الضياع والانفلات، هي حماية في نفس الوقت لهذين الفرعين الغاليين اللذين لن يسعدا أبدا بحال أختهما إذا أفلت زمامها أو إذا ترسخت لديها بعض سلوكياتها الخاطئة حتى استحال اصلاحها، كما أن زوجك لا يحسن إليك وحدك في الحقيقة إذا هو تنازل عن معارضته الصارمة لضم ابنتك إليك في هذه السن الحرجة، وإنما يحسن كذلك إلى ابنيه اللذين سيسوؤهما كثيرا في المستقبل أن تكون لهما أخت خارج نطاق السيطرة، ويستفيدان كثيرا عاطفياً وإنسانياً إذا نجحت الجهود في احتواء تجاوزات ابنتك والعبور بها إلى شاطئ الأمان.. ولأن تكون لهما في المستقبل أخت فاضلة عطوف تتبادل معهما الحب الأخوي والاهتمام، خير لها كثيرا من أن تكون لهما أخت تمثل بالنسبة لهما عبئاً من الناحية الأخلاقية، يضيقان به ويتكتمان أمره فكيف غاب عن كل ذلك عن زوجك الطيب وهو يتمسك بموقفه العنيد من عدم السماح لهذه الابنة بأن تحيا في رعاية أمها ووسط أخويها؟

إنها في حكم الابنة اليتيمة لغياب الأب عنها وعجزه عن ضمها إليه او رعايتها، فلماذا يحرم نفسه من فضل رعاية هذه الابنة اليتيمة معنويا حتى ولو كان لها اب على قيد الحياة؟!

إن امير الشعراء أحمد شوقي يقول:

ليس اليتيم من انتهى ابواه
من هم الحياة وخلّفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له
اما تخلّت أو أبا مشغولا

وليس استجداؤها لابن الجيران ألا يتخلى عنها كما تخلى عنها الجميع إلا ترجمة مؤلمة لإحساسها العميق بالنبذ العاطفي وبالضياع. وليس اجتراؤها على نقود جدها وانفاقها على صديقاتها سوى تعبير عن الحاجة إلى الشعور بالإعزاز المفتقد لديها عند أقرب الناس إليها وهو سلوك مألوف لدى الصغار الذين يمدون أيديهم إلى أشياء الغير بدوافع نفسية وينفقون ما يستولون عليه دائماً على أصدقاء يطلبون لديهم القبول وممارسة الإحساس بالجدارة بينهم، فكأنما «يشترون» منهم بما يسخون به عليهم الحب والاهتمام الذي يفتقدونه في محيطهم العائلي، فحدثي زوجك من جديد عن عمق احتياج ابنتك إليك في هذه المرحلة الحرجة من العمر.. واطلبي منه أن يأذن لك بضمها إليك ولو خلال هذه الفترة على الأقل إلى أن تعبري بها إلى شاطئ الأمان. وبادري بتعميق الصلة الأخوية بين ابنيك وبين أختهما وأغرسي في نفسيهما الشعور بأن لهما أختاً تحتاج إليهما ويحتاجان إليها بشدة وحثي كلا منهما على الاتصال بها يوميا وزيارتها ودعوتها لزيارتهما كل حين وقضاء أوقات كافية معهما لتعميق الروابط بينهم.. ولسوف يكون هذان الابنان هما أكبر العون لك على إقناع أبيهما بحاجتهما إلى هذه الأخت.. الآن وفي المستقبل.

وإلى أن يتحقق ذلك ضاعفي من اهتمامك بابنتك ومن الأوقات التي تقضينها معها وعالجي سلوكها المنحرف فيما يتعلق بالنقود والكذب والتعلق بابن الجيران وهي مازالت طفلة في الثالثة عشرة بتلبية احتياجاتها النفسية والعاطفية التي يعكسها تحسرها على «الحلم الضائع» في أن تكون لها أم وأب وأسرة وبيت، وزيدي من جرعة الحنان التي تقدمينها لها، وادعمي ثقتها في نفسها وفي جدارتها بأن تكون موضع حب واهتمام أمها وأخويها وجديها والجميع وقاومي لديها الشعور بالنبذ وتخلي الجميع عنها.. واشركيها في بعض المسئوليات العائلية خاصة من الناحية المادية لإشعارها بأنها أهل للثقة بالرغم مما حدث وحتى تتردد فيما بعد في الإقدام على سلوك يتناقض مع هذه الثقة أو يشعرها بأنها تخونها.

ثم واصلي خلال ذلك وبعده الجهاد مع زوجك إلى أن يغير موقفه منها ويتعامل معها كابنة أو ربيبة له يعينك على امرك معها ويساعدها على أن تخرج إلى الحياة فتاة ناضجة سوية واختا فاضلة لابنيه وليس العكس بإذن الله.